شرح كتاب (عقيدة السلف وأصحاب الحديث) لأبي عثمان الصابوني-رحمه الله.

شرح فضيلة الشيخ

أ.د. أحمد بن عبدالرحمن القاضي

بسم الله الرحمن الرحيم

الدرس (١٦)

ندرس في هذا الدرس:

١. حكم مرتكب الكبيرة في الدنيا والآخرة
٢. حكم تارك الصلاة
٣. خلق أفعال العباد

١. [حكم مرتكب الكبيرة في الدنيا والآخرة]

قال أبو عثمان الصابوني – رحمه الله:

ويعتقد أهل السنة أن المؤمن وإن أذنب ذنوباً كثيرة صغائر وكبائر، فإنه لا يكفر بها، وإن خرج عن الدنيا غير تائب منها، ومات على التوحيد والإخلاص فإن أمره إلى الله عز وجل إن شاء عفا عنه وأدخله الجنة يوم القيامة سالماً غانماً غير مبتلى بالنار، ولا معاقب على ما ارتكبه واكتسبه، ثم استصحبه إلى يوم القيامة من الآثام والأوزار، وإن شاء عاقبه وعذبه مدة بعذاب النار، وإذا عذبه لم يخلده فيها بل أعتقه وأخرجه منها إلى نعيم دار القرار.

وكان شيخنا سهل بن محمد رحمه الله يقول: المؤمن المذنب وإن عذب بالنار فإنه لا يلقى فيها إلقاء الكفار ولا يبقى فيها بقاء الكفار، ولا يشقى فيها شقاء الكفار، ومعنى ذلك: أن الكافر يسحب على وجهه إلى النار، ويلقى فيها منكوساً في السلاسل والأغلال والأنكال الثقال، والمؤمن المذنب إذا ابتلي بالنار فإنه

يدخل النار كما يدخل المجرم في الدنيا السجن على الرجل من غير إلقاء وتنكيس ومعنى قوله: لا يلقى في النار إلقاء الكفار أن الكافر يحرق بدنه كله كلما نضج جلده بدل جلداً غيره ليذوق العذاب كما بينه الله في كتابه في قوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ} [النساء:٥٦]، وأما المؤمنون فلا تلفح وجوههم النار، ولا تحرق أعضاء السجود منهم إذ حرم الله على النار أعضاء سجوده.

ومعنى قوله: لا يبقى في النار بقاء الكفار: أن الكافر يخلد فيها ولا يخرج منها أبداً، ولا يخلد الله من مذنبي المؤمنين في النار أحداً. ومعنى قوله: ولا يشقى في النار شقاء الكفار: أن الكفار ييأسون فيها من رحمة الله ولا يرجون راحة بحال.

وأما المؤمنون فلا ينقطع طمعهم من رحمة الله في كل حال وعاقبة المؤمنين كلهم الجنة؛ لأنهم خلقوا لها وخلقت لهم فضلاً من الله ومنة.

هذا التقرير الأخير في بيان عقيدة أهل السنة والجماعة في مرتكب الكبيرة، وأنهم يعتقدون أن مرتكب الكبيرة تحت المشيئة والإرادة يوم القيامة، فإن شاء الله تعالى عفا عنه وغفر له مجانًا وأدخله الجنة بفضله ورحمته ومنه وكرمه، وإن شاء عذبه بقدر ذنبه عذابًا يتفاوت طوله وقصره، ثم بعد ذلك يخرج من النار إما بشفاعة الشافعين أو برحمة أرحم الراحمين كما وصفنا لكم آنفًا أنه يخرج من النار قوم يقال لهم: الجهنميون يخرجون من النار قد امتحشوا، يعني قد تفحموا واحترقوا يخرجون دبائر دبائر ويلقون في نهر في الجنة يقال له نهر الحياة، فينبتون كما تنبت الحبة في حميل السيل، فينشئوهم الله خلقًا جديدًا فهذا ما يعتقده أهل السنة والجماعة.

ثم بين كلامًا لأبي سهل الصعلوكي رحمه الله سهل بن محمد بين فيه أن حتى المؤمنين الذين يعذبون في النار لا يعذبون فيها بعذيب أهلها الذين هم أهلها لا إلقاءً ولا إبقاءً ولا شقاءً، بل يختلف حالهم ويكونون أهون وأخف من أولئك – أجارنا الله وإياكم من النار – ومع ذلك فالواجب على كل مؤمن أن يخاف النار، وأن يحذر هذا العذاب، يقول الله عز وجل: {إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَى أُوْلَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ (101) لا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ (102) لا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمُ

الَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ} وتأملوا يا كرام لما ذكر الله تعالى صفات عباد الرحمن في سورة الفرقان قال سبحانه: {وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا} ماذا قال بعد ذلك: {وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا (65) إِنَّهَا سَاءتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا} يعني كأن هاجسهم مقيمهم المقعد مقلقهم في هذه الدنيا هذه المسألة فإذا قاموا يتهجدون من الليل يقولون وقد وضعوا جباههم لله سجدًا {رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا (65) إِنَّهَا سَاءتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا} وتأمل بعدها بآيات لما ذكر الله سبحانه وتعالى أنواع الآثام قال: { وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا (68) يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا (69) إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحًا فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا} فما أعظم التوبة لكن التوبة النصوح هي التي اقترن بها الإيمان والعمل الصالح، قال: { إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحًا } فإذا أردت أن تعرف إن توبتك نصوحة أم لا فانظر هل صاحب توبتك إيمان وحياة قلب، وهل أثمر ذلك عملًا صالحًا أم مجرد توبة لسانية، فإن كانت الأولى فاحمد الله، وقد ذكر الله هذا المعنى في أكثر من موضع { وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى } فالقرن بين التوبة والإيمان والعمل الصالح في ثلاثة أو أربع مواضع في القرآن العظيم.

[حكم تارك الصلاة]

ثم قال-ر رحمه الله- بعد ذلك:

واختلف أهل الحديث في ترك المسلم صلاة الفرض متعمداً، فكفره بذلك أحمد بن حنبل رحمه الله وجماعة من علماء السلف، وأخرجوه به من الإسلام؛ لقوله صلى الله عليه وسلم في الخبر الصحيح: ((بين العبد والشرك ترك الصلاة، فمن ترك الصلاة فقد كفر)).

وذهب الشافعي وأصحابه وجماعة من علماء السلف رحمة الله عليهم أجمعين إلى أنه لا يكفر ما دام معتقداً لوجوبها، وإنما يستوجب القتل كما يستوجبه المرتد عن الإسلام.

وتأولوا الخبر السابق أن معناه: من ترك الصلاة جاحداً لها، كما أخبر سبحانه عن يوسف عليه الصلاة والسلام أنه قال: {إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ} [يوسف:٣٧] ولم يكن قد تلبس بكفر ففارقه، ولكن تركه جاحداً له.

هذه المسألة من المسائل القلال التي اختلف فيها السلف مما له صلة بأمر العقيدة، وهي مسألة كفر تارك الصلاة تهاونًا وتكاسلًا مع اتفاقهم قطعًا على أن من جحد وجوب الصلاة فهو كافر كفرًا مخلد صاحبه في النار، لا يختلف على هذا اثنان من أهل الإسلام أن من جحد وجوب الصلاة فهو كافر؛ لأن الصلاة من المعلوم من الدين بالضرورة لا يخفى على مسلم أن الصلاة أحد أركان الإسلام ومبانيه العظام، فمن جحد وجوبها فهو كافر قطعًا لا يختلف على هذا أهل الإسلام، وإنما وقع الخلاف بينهم في من ترك الصلاة معتقدًا وجوبها؛ لكن تركها تهاونًا وكسلًا.

والأصل عند أهل السنة أنهم لا يكفرون بالذنوب العملية إلا هذه المسألة لعظمها وهي مسألة الصلاة، فذهب الإمام أحمد بن حنبل وكثير من علماء السلف المتقدمين إلى أن من ترك الصلاة ولو كان مقرًا بوجوبها تركها تهاونًا وكسلًا وتفريطًا فإنه كافر كفرًا مخرجًا عن ملة الإسلام واستدلوا بالخبر الصحيح كما قال المصنف: بين العبد والشرك ترك الصلاة، فمن ترك الصلاة فقد كفر، وبقوله صلى الله عليه وسلم: ((العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة، فمن ترك الصلاة فقد كفر))، واستدلوا أيضًا بالجمع بين آيتين والجمع بين حديثين.

أما الآية فهي قول الله تعالى: { فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ وَآتَوُاْ الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ }، إذًا معنى ذلك أن من لم يكن كذلك ليس أخ لنا في الدين، وكذا قوله: { فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ وَآتَوُاْ الزَّكَاةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمْ } وإنما يخلى سبيل من آمن وأما غير المؤمن الحربي فإنه لا يخلى سبيله، فدل ذلك على أن ترك الصلاة مخرج عن الملة، ولو قال قائل فما بال الزكاة إذًا، فيقال: إن الزكاة خصصها الحديث الطويل الذي فيه: ((ثم يرى سبيله إما إلى الجنة وإما إلا النار))، وأما الحديث الذي يدل على أن تارك الصلاة كافر فهو جمع بين حديثين في ((صحيح البخاري)) فإن النبي صلى الله عليه وسلم ذكر أئمة الجور فقال له أصحابه: يا رسول الله أفلا ننابذهم بالسيف فقال مرة: ((لا إذا أن تروا كفرًا بواحًا عندكم فيه من الله برهان))، وقال مرة: ((لا ما أقاموا فيكم الصلاة))،

فلما أجاب في مسألة واحدة بجوابين فسر جوابه الأول بجوابه الثاني، بمعنى أن عدم إقامة الصلاة يعد كفرًا بواحًا عندنا فيه من الله برهان، فهذه بعض أدلة من قال بكفر تارك الصلاة ولو كسلًا وتهاونًا.

وذهب الإيمان الشافعي وآخرون إلى أنه لا يكفر مادام معتقدًا بوجوبها وأن الترك المذكور في الحديث السابق من جنس قوله: { إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ } وأنه بمعنى الجحود و لم يكن يوسف عليه السلام كان على شيء ثم فارقه، فتركت يعني أنكرت، هذا خلاف محفوظ ولكنهم على قولهم بأنه لا يقلتوا ردتًا لكنهم يقولون أنه يقتل حدًّا، فترك الصلاة معشر المؤمنين أمره عظيم جدًّا ويجب على أهل الإسلام تعظيم أمر الصلاة غاية التعظيم؛ لأننا إذا قلنا إن تارك الصلاة كافر فمعنى ذلك أنه تنفسخ جميع ولاياته فينفسخ عقد نكاحه وولايته على أولاده وبناته ولا يرث ولا يُرث، وكذلك إذا مات فإنه لا يغسل ولا يكفن، ولا يصلى عليه، ولا يدفن في مقابر المسلمين، ويوم القيامة يحشر مع فرعون وهامان وقارون وأبي بن خلف، ويكون في الدرك الأسفل من النار، فعلى المسلمين أن يعظموا عند زويهم وأهليهم وأولادهم أمر الصلاة وألا يسهلوا فيها فالأمر جد خطير وهي عمود الإسلام ولا خير في بيت لا عمود له.

[خلق أفعال العباد]

ثم قال المصنف- رحمه الله:

ومن قول أهل السنة والجماعة في أكساب العباد: أنها مخلوقة لله تعالى لا ينكرون فيه، ولا يعدون من أهل الهدى ودين الحق من ينكر هذا القول وينفيه.

إن هذا شروع من المصنف أبو عثمان إسماعيل بن عبد الرحمن الصابوني في الكلام على مسألة القدر والإيمان بالقد ركن من أركان الإيمان ولا يتم الإيمان إلا به، ولا يتم الإيمان بالقدر إلا أن يؤمن المرء بأربعة أمور:

الأمر الأول: الإيمان بعلم الله المحيط بكل شيء جملة وتفصيلًا كليًّا وجزئيًّا ما كان من أفعاله سبحانه وما كان من أفعال عباده، أي: يؤمن بأن الله تعالى علم ما الخلق عاملون بعلمه القديم الذي لم يزل سبحانه متصفًا به، فقد علم سبحانه ما كان وما يكون وما سوف يكون وما لم يكن كيف لو كان يكون، علم سبحانه وتعالى الآجال والأرزاق وعلم الطاعات والمعاصي، فلا تخفى عليه خافية، ولا يعذب عنه مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض فهذا هو الأمر الأول الذي لا يتم الإيمان بالقدر إلا به وهو العلم.

الأمر الثاني: الإيمان بكتابة الله تعالى علمه ذاك في اللوح المحفوظ قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة، فقد كتب الله مقادير الخلائق، فقد كتب الله مقادير الخلائق، فلما خلق الله القلم قال له: اكتب، قال: وما أكتب، قال: اكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة، فجرى القلم بما هو كائن إلى يوم القيامة، وقد جمع الله سبحانه وتعالى بين العلم والكتابة في آية واحدة فقال سبحانه: { أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ }، وأما الآيات الدالة على طلاقة علم الله وإحاطته بكل شيء فأكثر من أن تحصى، وكذا الآيات التي تدل على كتابة الله للمقادير ومن ذلك حديث عبد الله بن عمرو بن العاص في ((صحيح مسلم)) أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ((إن الله كتب مقادير الخلائق، قبل أن تخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة، حتى العجز والكيس))، يعني إن الله تعالى كتب كل شيء في اللوح المحفوظ حتى الصفات التي تكون للأفراد من الحزم أو العجز أو نحو ذلك فكل شيء مكتوب.

الأمر الثالث: التي لا يتم الإيمان بالقدر إلا به: الإيمان بمشيئة الله التامة وإيرادته النافذة فما شاء الله كان وما لم يشأ لا يكون، لا يكون في ملكه ما لا يريد سبحانه وبحمده لا مانع لما أعطى ولا معطي لما منع ولا راد لما قضى وقد قال الله سبحانه وتعالى: { وَمَا تَشَاؤُونَ إِلاَّ أَن يَشَاء اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ }، وقال سبحانه: { وَلَوْ شَاء اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ }، { وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِن بَعْدِهِم }.

الأمر الرابع: هو الإيمان لخلق الله تعالى لجميع الأشياء، فالله الخالق وما سواه مخلوق، ليس له مشارك في الخلق، فالخلق كله لله، قال الله تعالى: { اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ }، وقال سبحانه: { وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا }، فلا يتم إيمان امرئ بالقدر حتى يؤمن بهذه الأربع: العلم، والكتابة، والمشيئة، والخلق، فمن أخل بواحدة منها فإنه

غير مؤمن بالقدر، ومن المعلوم أن الإيمان بالقدر هو أحد أركان الإيمان فقد جاء في حديث جبريل الطويل، حين ابتعث الله تعالى أشرف رسول ملكي إلى أشرف رسول بشري، ابتعث الله جبريل وهو أشرف الملائكة إلى محمد صلى الله عليه وسلم وهو أشرف الخلق بهذا الحديث ليعلم الناس دينهم، وكان مما سأله أن قال: ((فأخبرني عن الإيمان، قال: الإيمان أن تؤمن بالله وملائكة وكتبه ورسله واليوم والآخر وأن تؤمن بالقدر خيره وشره))، فمن لم يؤمن بالقدر فليس بمؤمن من شك أن الله سبحانه وتعالى لا يعلم بالأشياء قبل حصولها فذاك كفر؛ لأنه قد أنكر معلومًا من صفات الله بالضرورة وهي صفة العلم، وكان أول من تكلم بالقدر وأنكره في هذه الأمة رجل من أهل البصرة يقال له: معبد الجهني أنكر القدر وقال: إن الأمر أنف، يعني مستأنف على الله يعني يزعم أن الله تعالى أمر ونهاهم ثم هو لا يعلم من سيطيعه ومن سيعصيه، فلما وقع هذا الأمر أنكر عليه الصحابة الكرام الذين كانوا باقين في هذا الزمان وهم عبد الله بن عمر وعبد الله بن عباس وجابر بن عبد الله وغيرهم، وردوا عليهم مقالتهم تلك.

فبين الشيخ رحمه الله في هذه القطعة أن من قول أهل السنة والجماعة في أكساب العباد أنها مخلوقة لله، ما المقصود بأكساب العباد، قول الله تعالى: {لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ} أي ما يحصل للإنسان من أعمال صالحات أو ما يبدر منه من معاصي ومنكرات فكل ذلك مكتوب وليس مستأنف على الله تعالى بل قضاه الله وقدره منذ الأزل لكنه أخفاه عن عباده، لهذا قال: أنها مخلوقة لله تعالى ولا يجوز أن يقال: أن العبد يخلق فعل نفسه فلو قال أحد: إن العبد يخلق فعل نفسه فقد أشرك في الربوبية؛ لأنه لا خالق إلا الله، الله خالق كل شيء، ولم يثبت أحد خالقًا مع الله من بني آدم إلا المجوس، فإن المجوس زعموا أن للكون خالقان إله النور يخلق الخير، وإله الظلمة يخلق الشر، ولم يسبق إلى هذا القول أحد من بني آدم، وجميع بني آدم مفطورون على أن الله تعالى هو الخالق، وأنه هو المالك، وأنه هو المدبر، وأنه سبحانه وتعالى رب العالمين.

وصلى الله وسلم وبارك على عبده ونبيه محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.